الفصل الأول

تأملات حول الحريّة والدّيمقراطية

الانعكاسات النفسيّة للحريّة والدّيمقراطية

ليس مصادفة أن تتلازم الاخفاقات في مجالات الحياة جميعها، من (تكنولوجية وعلمية وسياسية..) في بلادنا العربية، وليس مصادفة أن ترتبط إنجازات التّكنولوجيا، والصناعة بإنجازات الإيديولوجيا والإنتاج والإبداع بعيش الدّيمقراطية، وإثبات الفردية ضمن وجود الفرد الفاعل في الحركات الاجتماعية في بلدان العالم المتمدن، تتمثّل سمات العالم الثّالث المتخلف:

"بأن الكل يتكلم، ولا أحد يسمع" من هنا يمكننا الإشارة إلى إرهاصات الصّراع الأولية، الملحوظة على مستوى وجود الفرد في الاسرة، وآليات التّفاعل ضمنها.

ولما كان قانون الوجود هو الصّراع، ومحرك الحياة والقوة الدّافعة لاستمرارها، ليكون الصّراع بذلك محرك الوجود، فهذا الصّراع يعاش اليوم بأشكاله كافة أمام ناظرينا، صراع بين البنى القديمة والجديدة. صراع بين الأجيال حول النّظرة للحياة بين الشّباب الثّائر، والأهل الخائفين من التّغيير، وصراع بين الأحزاب في إقامة استحقاق النّظم الدّيمقراطية المناسبة، والتّحول من هيمنة الدّولة على سوق العمل، إلى فتح المبادرات الفردية والخاصة لأسواق جديدة للعمل والعمالة، وكذلك الانتقال من الشّمولية السياسية إلى الدّيمقراطية السياسية...

فهذا الصّراع الدّموي، حصل نتيجة تعطل العقل النّقدي، وتوقف الحوارات العقلانية مع تبدلات الحدث، بحيث لم يعدّ يصبح فيه حق الوجود والحياة إلّا للذات المفردة المنغلقة حول نفسها وحول جلدها، حتى لا تجد الذات اليوم في غيرها، إلّا عدواً وخصماً وشراً لا مخرج من خطره، إلّا بتدميره والإجهاز عليه.

من هذه المظاهر وغيرها يكون العنف الذي استشرى في بلادنا خير شاهد ومؤكد، لهذا الطّرح الذي أتيت على إيضاحه بكلامي السابق، هذا العنف الذي من جرائه، وجدنا أن من لم يمت في سعير الموت بقي شاهداً على الارتداد لما حققته الإنسانية، من منجزات مشينة في العمل السياسي لقضايا عديدة تتصل بالبلاد العربية.

ويبقى التّساؤل الذي لم ينقطع لديّ، والذي يمكنني حصره بعديد من الاستفهامات من مثل: هل نحن في محنة مؤسسات السلطة؟ أم هل هي محنة الإدارة للأزمة كما ظلوا يرددون؟ هل هي محنة الأجهزة الأمنية؟ أم هي محنة الدّولة في كل مفاصلها؟ ومحنة فشلنا عن اللحاق بركب العصر؟ أم محنة الفشل في مواجهة الواقع؟ محنة تبرير الفشل؟ ونكرانه وحرفه عن مساره من خلال إلقاء التّهم والمسؤولية على عاتق الآخرين بوصفهم بعبارات خاصة حتى في أوساط المثقفين.

من هنا أجد أنّ مسيرة الأمم في التّقدم، تتشابه مع مسيرة الأفراد الطّامحين، بحيث إنّنا نجد الشّخص الطّموح مهما أحبط، يحاول إعادة المحاولة من جديد من خلال تجديد السّعي ليصل إلى مراميه، دافعه لذلك ثقته بقدرته وبصيرته، وبأهمية سعيه نحو ما يرمي إليه.

وإن كان للباطل جولة عبر مسيرة الأفراد، فإنّ للحق جولات في مسيرة الشّعوب ومساعيها... فإرادة الحياة وحريّة الإرادة، هما خاصيتان تتطوران مع الإنسان في سياق التّطور التاريخي للإنسانية، حريّة الإرادة التي تمثل القدرة على اتخاذ القرارات المصيرية مع الوعيّ بمسببات مقاومتها، والوعي بآثار عيشها الإيجابية على البلاد التي أخذت طريقها للتحقق، فاستناداً "لأنجلز" العالم الماركسي الشّهير، الذي يؤكد على أنّ التّحكم في الطّبيعة كما التّحكم في الذات هما من صفّ واحد، كونهما لا يقهران، فحرية الإرادة فيما يتعلق بهذا وذاك هي بالنسبة له كما بالنسبة "لهيغل" بمثابة "فهم الضّرورة".

بينما يرى "هيغل" أن الحرية تقوم بشكل أساسي على معرفة ضرورات الطّبيعة: "Naturnot Wendigkeitien" والسّيطرة على أنفسنا وعلى الطّبيعة الخارجية.

ولذا فإنها تعدّ نتاجاً ضرورياً للتّطور التاريخي الذي يعود لحقيقة تاريخية كون الناس الأوّلين الذين انفصلوا عن مملكة العيش كمجموعات منغلقة، من قبائل وتكتلات صغيرة كمجموعات الصّيد والرّعي حيث كانوا في جوهر الحياة الاجتماعية غير أحرار، ولكن بانتعاش العمل الزّراعي ومن ثم الصّناعي بخاصة، كان التّطور نحو التّطور الذّهني لتطوير المبادلات والعلاقات بين البشر، بحيث كل خطوة إلى الأمام على طريق الثّقافة كانت تعدّ خطوة نحو الحريّة، وفقاً لمفهوم الحريّة والسّيطرة على الذات الذي طوره "سبينوزا" في مؤلفه الشّهير (الأخلاق).

الخوف من التغيير

في التاريخ الإنساني كان الخوف دائماً من التّغيير المباشر يشكل أزمة اجتماعية مع الذات كما مع الآخرين، لأنّ صراع الأنا والأنا الأعلى قصة وجودية تميز التاريخ البشري، ولا وعيهم الجمعي.

وفقاً لجدلية (الأنا والآخر) يتم طرح التّساؤلات العديدة.

هل الحل أن تُلغى الأنا، وبذلك نلتقي مع الأنا الجماعية؟ وهنا تضيع الخصوصية؟

هل مقولة حقوق الإنسان تركز على الأنا الفرد، أم على الأنا ككائن بشري ممثل لنوعه؟ وما يصح على الجزء يصح على المجتمع ككل.

وهل تعدّ الأنا والآخر كمصطلحات نفسيّة هي نفسها عندما نسقطها على السياسيين؟

إنّ مفهوم الأنا مكروه في الثّقافة الاسلامية، فعلى سبيل المثال لا الحصر، يقال: في الخطاب الشّعبي اليومي متلازمة اسمها "أعوذ بالله من كلمة أنا" عند كثيرين كلما نطق أحدهم لفظة "الأنا".

وفي سورة (طه) التي يخاطب بها الله تعالى موسى [إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا] (سورة طه، الآية 14) ومنذ بداية الإسلام جعل الناس يعتذرون عن نسبة ضمير المتكلم إليهم بقولهم: «أعوذ بالله من كلمة أنا» من هنا نجد المآل الذي آل إليه الحلاج بقوله: «أنا الحق والحق أنا» التي عُدّت في أحسن حالاتها من الشّطح ومن أنّها كفراً استحق قائلها القتل.

إلاّ أنّ المتصوفة فيما بعد أولوا مقولة الحلاج أي أرجعوها إلى المعنى الأولي الأصلي، أي إلى تجربة الحب الإلهي حيث تكمن المحبة فيها، ومؤرخو التّصوف يتفقون على أنّه لا تصلح المحبة بين الاثنين حتى يقول الواحد للآخر: يا أنا.

وقد شاع التعبير الشّهير لابن عربي: أنا من أهوى ومن أهوى أنا...

أما عالم النّفس الإسلامي الشّهير "ابن سينا" فقد كرّس مكانة الأنا وهبوطها من العالم العلوي والطّهري من خلال تعبيره عن ذلك في البيت الشّعري التالي:

هَبَطَتْ إِلَيْكَ مِنَ المَحَلِّ الأَرْفَعِ وَرْقَاءُ ذَاتُ تَعَزُّزٍ وَتَمَنُّعِ

لنصل إلى (بولبير ولاكان) حيث الأنا هو الآخر، ليقودنا كل ذلك إلى أنّ حِرَاك الأنا لِتأخذ موقعها باستقلالية من خلال اتحادها بالآخر، كان دائما ينمُّ عن صراع يشتد ويشتد، وتكون نتيجته المحتمة تنامي سلوك العدوانية في حياة الناس.

وأجد هنا أنّ الإشارة إلى السّلوك الأصيل عند الإنسان يستهدف أمرين:

1- حشد الطاقات بأسباب البقاء، لتصبح العدوانية بمنزلة قوة تدفعنا إلى العمل والكفاح للحفاظ على التّوازن بين الرّغبات والواقع.

2- عدوانية تدفع الإنسان إلى الموت، وإلى الاستسلام لهدوء الموت.

هاتان القوتان المتعارضتان والمتواطئتان معاً، هما في أصل الازدواجية العاطفية التي تلازم النّفس البشرية.

بحيث يتبدى لنا، بأن إرادة الحياة عدوان يتبدى ذلك كفتح لا يكتمل إلّا بإفناء المعتدي نهائياً بالموت، أو إضعافه ليفقد جوهر الوجود الحيوي وهنا فحوى غريزة

الموت، أو قبوله شريكاً لتعاش غريزة الحياة كبعد حضاري على الدّوام، لكون نزوة الموت قد تدفعنا إلى إنزال الموت بأنفسنا من توجيه العدوان ضدّ أنفسنا، وكأنّنا نتجنب الآلام النابعة من رغباتنا اللاعقلانية، وميولها المتناقضة تجاه حفظ الذات، والتّدمير على حدّ سواء، هذا الصّراع هو المضمون الجوهري للحياة، ومعركة الجنس البشري في إرساء الحدود والضّوابط في مواقف الحياة المختلفة والتّجاوب مع حتميتها السّببية..

هناك مقولة تأملتها مراراً: "إنّ الخوف من الثّعابين أمر منطقي، لأنّها تلدغ، أمّا الخوف من التّحدث على الملأ فهو ما يجب أن نتغلب عليه".

هذا القول: أعتقد أنّه معبّر عن خلاصة عملية لثقافة الدّيمقراطية، وتفعيل آليات التّحالف والتّنسيق للعمل الجماعي الخلاق...

فقد شكّل الخوف من الآخر صفة الأنظمة القمعية كلها التي مرت على الشعوب كافة، وبالتّالي كان العمل الدّيمقراطي المبني على النّدية مع الآخر والنّدية تتضمن اعترافاً واحتراماً وتنافساً لقوام العمل المبني على أجندات فكرية سياسية ناضجة، وهذا ما نرنو إليه اليوم وسنبقى نرنو إليه في المستقبل، العمل الأفضل برؤية منهجية في الفكر والسّلوك...

العمل السياسي هو عمل فكري هو "تواصل" عنوانه: الاهتمام بالآخر القرين، والآخر الصّغير، إلى الآخر الكبير الذي يصلنا إلى أبعد رمزية وقيمة معنوية /الآخر الكبير= المثال الأعلى أو مثال الأنا / المعادل الطموح للمجد والسّمو...

فالآخر ليس عدواً، بل شريكاً، الآخر ليس سلطة بل قيمة معنوية نمتثل لها باحترام ومحبة... ومن خلال هذا الفهم يمكننا العمل بخلق فرصٍ أوسع، وكذلك بعيش اجتماعي أرحب، وأجد أنه كي نحقق أهدافنا من تفاعلنا مع الآخر، يغدو لِزام علينا السّير بخطوات عدة، من أهمها أمران:

1- الإنجاز الواسع لما نعمل له.

2- العيش الرغيد الرحب.

ولتحقيق هذين المحورين، لا بدّ من نواظم نمتثل إليها، لتكون مرجعيّتنا مرآة نعكس عليها رؤانا في عيون الآخر المحبّ، وليس الآخر المدّمر، مرآتنا في عيون الآخر النّاقد لا الحاسد...

ولا أجد أحرى من أن تكون لنا ضوابط عمل وميثاق شرف اجتماعي للعمل الدّيمقراطي في بلادنا العربية، ولبلدي سوريا على وجه الخصوص، سوريا الحديثة، تتمثل بإيضاح بعدين أساسيين:

- الهدف. - التّنظيم.

وتجدر الإشارة هنا إلى دلالات عدة من مثل:

1- عند وضوح الهدف يسهل الوصول إليه، حتى لو كان يلزمه جهدٌ كبيرٌ، ولما كانت الدّوافع للعمل معقودة على شعاع النور الذي يبرق لنا لنبصر الهدف، حينها يصبح لزوماً علينا أن نضع الأمل والثقة بالآخر نصب أعيننا، إن أردنا لأهدافنا أن تأخذ طريقها للحياة، وتأخذ فرصها عبر برامج التّنمية البشرية للإنسان المعاصر.

2- "في علم النّفس العام هناك فهم واقعي لآلية عمل الدوافع، من حيث إن كل سلوك لا بدّ له أن يكون مدفوعاً بدافع" ولذا دوافعنا للعمل ستكون الأهداف الخيّرة السّامية برفعة إنساننا العربي، عبر امتثالنا لمنظومة قيمنا الرّوحية والثّقافية، بكل تلويناتها الرّوحية والفكرية والعرقية والجغرافية التي تمتد رحابتها في العمق.

3- التّنظيم الجيد ليس أمراً معقداً مثل جراحة الأعصاب والمخ مثلاً، ولكنّه كمقاربة طبية أشبه بإزالة الزّائدة الدّودية، كونه يصبح أمراً سهلاً وروتينياً بمجرد أن نتعرف على كيفية عمله من خلال الانتظام بتكرار اعمالنا، ليكون إنجازنا مثمراً من دون معاناة، ومن دون تعرق زائد كعلامة للتّوتر...

ولتحقيق الأهداف عبر التّنظيم، قد يلزمنا البحث عن التّوافق ما بين أهدافنا وأهداف سوانا، والالتفات إلى المعطيات التاريخية المتمثلة بالسّلوكيات التي أظهرها الناس النّاجين ممن كان لهم السبق في مسيرة الدّيمقراطية والتّغيير، وممن امتثلوا

للعمل بالفكر الدّيمقراطي، مما يستدعي فتح قنواتنا الإدراكية بصورة مستمرة على شرائح المجتمع كلها، الأثرياء والفقراء والكسالى منهم والجادين، المنظمين منهم والعشوائيين، المخادعين والمرحين.

فمعرفة جمهورنا الواثق بنا، له أبعد الأثر في المعرفة المناسبة لصوغ الأهداف المبتغاة، بحيث يكون المعيار هنا: تجربة الأداء باعتبارها المؤشر على صحة ما نفكر به، وما وضعناه من أهداف، وبذلك يكون تقبل النّقد أداة مرنة في حياتنا اليومية كمجموعات بشرية مختلفة الأعراف والانتماءات الضيقة، ليس لأية فئة أو جماعة بشرية اليقين بطروحاتها ومعتقداتها، والكل بانفتاحهم على ثقافة المختلف عنهم يصبحون أقوى وأنضج، ومن خلال تحكيم العقل الموضوعي عبر أدوات النّقد الفعال نصبح بعيدين عن الطروحات المثالية التي لا يمكن تحقيقها، كون من يعمل بجدّ ضمن هذه الذّهنية، يبقى واثقاً عندما يتحدث وفقاً لشعار معروف "عملنا يُحدّث عنا"، وتبقى الدّيمقراطية كفكر وعمل محفزة للجميع بتجديد يليق ويواكب تطلعات الأبناء، ومن ثم الأحفاد.

على اعتبار أنّ الدّيمقراطية في النّهاية، هي ثقافة ومنظومة أخلاقية قبل أن تكون صندوق اقتراع وانتخاب.

فما بين الرّغبة بقبول الآخر والتّفوق عليه، تبقى الرّغبة بالمساواة مع الآخر هي العقدة في تحقيق العدالة الاجتماعية والانتقالية في بلدنا، الرّغبة التي هي العنصر الذي يميّز الإنسان عن باقي الكائنات، هذه الرّغبة التي منطلقها الآخر دائماً، المتمثل بجوهر الفهم للإنسان باعتباره كائناً اجتماعياً، وفقاً للمنظور "اللاكاني" في التّحليل النّفسي نسبة لـ (عالم النفس الشّهير لاكان J. Lacan) الذي يقول: "إن كل آمال النّفس، ورغباتها هي رغبات الآخرين" إذ يقصد أنّك لا تنظر إلى هوية رغباتك، بل تنظر إلى شكل ما من الرّغبات يكون نابعاً من سواك، ومن أي شخص إلاك! إنّ عالمنا اللاشعوري ومن خلال مخاضات التواصل مع الآخرين يستلب منّا هوية الرّغبة الذّاتية، ونجد أنّنا نوطّن هويّة جديدة لرغبات مستعارة من الآخرين.

فمن بين مفهومي: (الميغالوتيما بمعنى الاعتراف بالآخر، ورديفتها "الإيزوتيما أي الرّغبة في المساواة مع الآخرين) إشكالية تبقى مفتوحة على مرّ الأزمان بين تحقيق الذات واحترام الآخر.

حيث الرّغبة في تأكيد الذات وحدها دون إحكام العقل كانت تأتي دائماً في قاعدة العنف الفردي والجماعي، وكان نتاجها مبدأ القوّة العارية، تلك القوة التي حاول الكتّاب والمفكّرون الإمبرياليون عقلنة الحرب والعنصرية من خلال كشفهم لتفاصيلها وأبعادها، وقد كانت عبارة "فوكوياما" الشّهيرة (نهاية التاريخ)، هي: دلالة بأعلى تركيب لغوي تراكمي لفلسفة التّمييز، والإقصاء التي حكمت المشروع الثّقافي الغربي، ذلك الجزء الرّاغب من النّفس، والطّامح إلى تأكيد الذات، وانتزاع اعتراف الآخرين بها...

من المعروف فيزيولوجياً أن غدة التّيموس هي: غدة صعترية حجمها حوالي (5غرامات) عند الطّفل الصّغير حتى عمر سنتين، بينما في الكبر تصل إلى (2.5غرام)، دورها الأساسي في السّنتين الأوليتين من العمر أنّها خط مناعي، وليس صدفة أن تكون المقاربة النفسية للتّيموس، من أنّها تعبر عن رغبة بالآخر بدءًا من عمر 16 شهراً، حيث يبدأ عمر نمو الأنا، وتكريس مبدأ التّمركز على الذات، حيث هذا العمر الذي يمثل هذا العمر قبل تشكل الأنا، أو ما تعرف بالمرحلة النّرجسية.

التّيموس كرغبة، والرّغبة هي جوهر الكائن البشري حسب تعبير "سبينوزا"، فالتاريخ عند "فوكوياما" خط حركي، والأحداث تتلاحق فيه بحيث تبدو، وكأنّها تصنع كمالاً ما، وهذا الكمال سيعني نهاية التاريخ، المحرك الأساسي للأحداث عند "فوكوياما" يعتقد أنّه التّيموس... كيف لا والرّغبة هي خاصية الإنسان الذي يتميز بوجوده عن الحيوان، من كون الرّغبة هي وليدة اللغة تنشأ من بقية باقية بعد إشباع الطّلب، على اعتبار أنّ تحقيق موضوع الطّلب، لا يفي باكتفاء الإنسان، فهذه البقية تصبح نقصاناً يتمم وجوده، وبذلك تنطلق الرّغبة من وجود نقصان دائم، وهذا

النّقصان ناجم عن غياب موضوع الطّلب، ليدخل الدال عبر اللغة فيقطع الطّريق على نموه الطّبيعي، سواء في الفطام عندما يقتطع الثّدي معه، أو النّظافة عندما يطلب منه الانفصال عن الغائط، أو في المرحلة الجنسية عندما يطلب التّخلي عن لذة القضيب باتجاه الأم.

من هنا تكون القاعدة النفسية تبعاً لمصطفى صفوان "إنّ اللجوء إلى الآخر ضرورة لتفريغ الرّغبات التّدميرية التي ترافق العمل الجنسي، وإلاّ كان الشّخص عصبياً مازوشياً، يركن إلى العادة السّرية التي تؤجج دوافعه العدوانية"... ليكون الإنسان بذلك من دون رغبات، إنسان غير قادر على الحياة، فحتى العبد المستعبد يحافظ على وجوده وعلى استمراريته في الحياة، من خلال فقط رغبة عنده بانتظار ساعة موت سيده...

والشّيء المميّز عند الإنسان أنّ مرجعيته لا تتقيد بالواقع البيولوجي، إنّما برغبة الآخر، لما يطلب منه ويتلقى الجواب، جواب الطلب لموضوع الرّغبة.

إنّ أوّل من تحدّث عن التّيموس بمعنى الرّغبة هو "أفلاطون" من خلال اقتراحه لنموذج أخلاقي يعبر عن كمال الإنسان، وبذلك يكون تحقيق الذات يتم من خلال اكتشاف البعد الأخلاقي في الطّبيعة البشرية، التّيموس هو الإحساس الدّاخلي الذي يوجه الإنسان نحو تحقيق العدالة والخير للآخرين، بمعنى هو توجّه الإنسان نحو الآخر، والتفكير فيه بشكل يعاكس الفردية والأنانية، وبمقاربة التّيموس البيولوجي مع التّيموس النّفسي يتحول الإنسان إلى موقف جبري يدفع به إلى مسايرة مبادئ السلطة الحاكمة، في الحالة الفيزيولوجية زيادة المناعة يعني الحصن والقوة من المفاجأت، وبالمعنى النّفسي يكون الموقف الجبري بالنعي للشّعارات، وللاقتراب من رؤية الآخر المختلف، هذه الشّعارات حتى وإن لم يكن يؤمن شخصياً بها، أو يقبل بمبادئها الأخلاقية وأبعادها الفكرية، حيث تحول الاهتمام الأخلاقي بالآخر في الزمن المعاصر إلى مسايرة وخضوع.

في الغرب نقرأ أنّ مفكري الدّيمقراطية في العصر الحديث، أمثال "لوك وهوبز"

عرّفا المجتمع المدني: بأنّه مجموعة التعاضدات التي تتيح للأفراد حرية التّملك وخصوصية العيش التي تحمي الفرد من تدخل الآخرين بحياته، ووصايتهم عليه، في حين "هيجل" وجهته تقول: إنّ المجتمع المدني الذي يصبو إليه الإنسان هو المجتمع الذي يعترف فيه كل إنسان بوجود الآخر وتفرده، فمركز اهتمام "نيتشه" الأساسي هو مستقبل رغبة الاعتراف، وقدرة الإنسان على إضفاء قيمة على الأشياء في نفسه، هذه الرّغبة التي يرى أنّها بالمعنى التاريخي للإنسان وبانتشار الديمقراطية، وهكذا بدلاً من أن يكون "التّيموس" أحد أقسام الكائن الإنساني الثّلاثة، فإنّه يصبح عند "نيتشه " كلية الإنسان، وبالتالي ووفقاً "لنيتشه" أيضاً فإنّ السّبب الأساسي لنشوب الحرب بين الدّول هو "التّيموس" وليس غريزة البقاء، فكما بدأ التاريخ البشري بالصّراع الدّموي من أجل النّفوذ وهنا الإشارة إلى الصّراع الإنساني الأوّل المتمثّل بين هابيل وقابيل، فإنّ الصّراع الدّولي يبدأ بالنّزاع من أجل الاعتراف المتبادل بين الدّول، وهو المصدر الأصلي للإمبريالية، الدّيمقراطية بين الدّول وهو المصدر الأصلي للإمبريالية.

وبالعودة للمعنى العقلي لنموذج صراع العبد والسّيد، وفقاً لجدلية هيجل الشّهيرة، من حيث إنّ هذه الجدلية التاريخية هي في منظومة الحياة وليست في الفقر، بل في العبودية، وليست في فقدان الرضا المادي، بل في فقدان الرّضا الذاتي.

إن رغبة الاعتراف عند العبد هي التي تدفع التاريخ إلى الأمام... والعبد هو التّرجمة الفعلية للشّخص الذي يأخذ بها كما يجدها المحلل النفسي الجزائري "فتحي بن سلامة". لقيمته الذاتية وكرامته بمعنى مجازي يصبح لديه معنىً لقيمته الإنسانية والوجودية.

وعلى اعتبار أن المحرك الأساسي للأحداث في التاريخ الإنساني، كان الصّراع من أجل الاعتراف، بدءاً من Thimos، هذا الجزء الراغب من النّفس، والطّامح إلى تأكيد الذات وانتزاع اعتراف الآخرين بها...

أمّا الصّراع من أجل الاعتراف كمفهوم، فهو قديم قِدَم الفلسفة السياسية، وهو الهم الأساس لكل المعارضات السياسية، ومن الإيجابي هنا أن نذكر مفهوم "هيجل"

للطبيعة الإنسانية، بأن الإنسان: هو كائن حرّ غير محدّد، فهو إذاً قادر على خلق طبيعته الخاصة خلال العصور التاريخية عبر الصّراع، فالإنسان الأول عند "هيجل" يرغب ليس فقط بأشياء حقيقية ملموسة، بل أيضاً يرغب بما يرغبه النّاس الآخرون، أي يرغب أن يعترف هؤلاء النّاس به، إذ لا يمكن للفرد أن يعي نفسه، وهويته الإنسانية المتميّزة دون أن يعترف به الآخرون، ومبدأ هيجل هذا هو قاعدة نفسية نعمل عليها، تتمثل في أن نظرة الإنسان لذاته تأتي من نظرة الآخرين له، وفق معايير علم النّفس الاجتماعي ونمو الأنا والآخر المقابل، تبعاً لمراحل النّمو النفسية في النّظرية النفسية التّحليلية، هذه المرآة الاجتماعية كانت عماد إبداع نظرية "جاك لاكان" المطوّرة لمنهجية التّحليل النّفسي الفرويدي...

يقول "هيجل" إن التقاء الإنسان الأولي، مع غيره من الناس الآخرين يؤدي إلى صراع عنيف، يسعى فيه كل مقاتل إلى أن يعترف به الآخرون على أنه يخاطر بحياته، فالإنسان هو في الأساس إنسان اجتماعي يتجه نحو الآخر، إلّا أن اجتماعيته تقوده نحو صراع مميت، من أجل الهيبة والاعتبار.

فالمعركة الأولية هي توتر أساسي ما بين كبرياء الإنسان، ورغبته في أن يُعترف به، تدفعه إلى المخاطرة بحياته في معركته من أجل ردّ الاعتبار من جهة، وخوفه من الموت العنيف.

وهناك الكثير من الرغبات الهادفة إلى الحصول ليس على المرغوب فيه، بل الحصول على حب الآخرين، أو الاعتراف منهم، من حيث إنّ رغباتنا لاشعورياً، تحاول أن تجعلنا نقول إنّنا مثل الآخرين، ولا نختلف عنهم، ثم يأتي شكل آخر هنا، من أشكال بناء هوية الذات على المستوى اللاشعوري، وهو ما تنتجه "عقد التّناقض" فتكون رغباتي عكس ما ترغب فيه أنت.

إنّ الذي يدفع للخضوع، وقبول حياة العبودية مقابل حصول الإنسان على السّلام والأمن من جهة، والقبول بخطر الموت في معركة من أجل الاعتبار فقط، هو الذي يجعل الإنسان إنسانياً، وهو الرّكيزة بالذات للحريّة الإنسانية، ولكن إذا كان هذا

الصّراع من أجل الاعتراف هو: الفعل الأول للإنسان، فإنّه لن يكون الفعل الأخير، فالصّراع سينتهي وفقاً للعلاقة الهيجيلية "السّيد والعبد"، التي لن تكون مُرضية، لا بالنسبة للسيد، ولا بالنسبة للعبد، حيث إنّ المعركة الدّامية بين الناس الأوائل ليست سوى نقطة انطلاق للديالكتيك، والصّراع من أجل الاعتراف يعود بأصوله إلى الجانب "التّيموسي"، وفي النّفس أي إلى النّفس الرّاغبة، فيبدو أن رغبة الاعتراف هي المحرك الأوّل للتّاريخ الإنساني، فبدءاً تعدّ كتابات أفلاطون، أولى الكتابات التي وصلتنا في الحديث عن النّفس والإنسان، فقد تحدث عن التّيموس (ماكيافيلي) كما (أفلاطون) بالإشارة إليها من خلال حديثه عن رغبة المجد لدى الإنسان، كما أن "هوبز" تحدث عن الاعتزاز والكبرياء، و"روسو" تحدث عن حب الذات، و"نيتشه" تحدث عن أن الإنسان الحيوان ذو الوجنتين الحمراوين، أي الإنسان ذو الانفعال.

وفي ثقافتنا العربية صفة الإيثار صفة ملازمة للعربي الأصيل، ما يعني من كل تلك المعاني والتّعابير السابقة عند كل الشعوب، أنّ الإنسان الذي يشعر بالحاجة إلى منح قيمة لكل شيء من الجانب الخاص لشخصيته يعتبر أن المعاني هي المصدر الرّئيسي لانفعالات الفخر والغضب والخجل، وهو لا يمكن أن يتحول إلى ذُل الرغبة من جهة، ولا إلى العقل من جهة.

فالطّريقة لتأكيد هوية الاستقلال، والمغايرة عن الآخر، نقوم بتكوين رغباتنا ليس وفق احتياجاتنا بل على قاعدة المغايرة وليس المسايرة.

وبالعودة "لتيموس" أفلاطون نجد أنّ: المفهوم عنده مرتبط بالقيمة التي نضعها في ذاتنا، هذا هو تأكيد الذات بالمعنى النّفسي، "تيموس أفلاطون" هو المركز النّفساني للرغبة الهيجيلية رغبة الاعتراف، فالسّيد يندفع إلى المعركة الدامية، بفعل الرغبة في أن يقدره الآخرون، فمن كون "التّيموس الأفلاطوني" هو المقر النّفسي لجميع الفضائل الشّريفة، فهو يقدم ركيزة انفعالية قوية لعملية التّقويم، والتّقييم ويمكّن الإنسان من الانتصار على غرائزه من أجل حبّ ما يعتقده حقاً وعدلاً، أردت من خلال كل هذه الأمثلة المختلفة عن "التّيموس"، التي أوردتها إلى

توضيح أنّها كلها تهدف إلى الرّهان على أنّ كل نشاط اقتصادي، يمكن أن يتحول إلى رغبة الاعتراف، حيث إنّ هذه الطاقة الذاتية هي مجهود، ومردود الجهد دائماً، هو المرتكز الأول لكل اقتصاد، ليبقى العقل والرّغبة جزأين من النّفس متميزين عن "التّيموس" من خلال إدراكنا لكثير من تقنيات نمو الذات في شخصية الإنسان، وتشكلها في المراحل الأولية من العمر، ثم سلوكها ورغباتها في المراحل العمرية المتقدمة، التي ستعطينا فرصة أفضل، لفهم أنفسنا وللتّوافق معها، وفق رغباتنا نحن، وبعيداً عن تشوهات الذات المحاكية أو المناقضة للآخر...

الإنسان "التّيموس" هو إنسان الغضب الذي يغار على كرامته الذاتية، وعلى كرامة مواطنيه، هو الإنسان الذي يفهم أنّ قيمته تتكون من شيء يفوق مجمل الرغبات المعقدة التي تشكل وجوده المادي، ويدرك معنى الكرامة الشخصية عند غيره من النّاس، مطلبه في أن يعترف به الآخر الإنساني.

التّيموس هو مصدر للفضائل الشّريفة، لاختيار الدّيمقراطية الليبرالية في عالمنا المعاصر، وبذلك أجد أنّه ليس غريباً أن يسود في ثقافتنا الشّعبية تكريس الفهم لدى الغالبية من أن رغباتنا قاتلة لنا، كون الرّغبة هي أصل الشّر الرئيس، فهي مكرسة كالوسواس الخناس.

وبالعودة إلى "فوكوياما" الذي يجد فيها أن المحرك الأساسي للتّاريخ هو الجانب "التّيموسي" النّفسي للفرد والجماعة، أي هذا الجزء الخاص بالإنسان الراغب، والرغبة قاعدة النفس الطامحة إلى تأكيد انتزاع اعتراف الآخرين بها، هو ماهية ثابتة للإنسان، من كونها مبدأ الصّراع الفردي والجماعي من أجل الاعتراف وتأكيد الذات...

أما فيما يتصل بالشّق السياسي للتّيموسية، فهي العامل النّفسي المحرك التي أسقطته الأنظمة الكليانية / الشّمولية على شعوبها نفسياً، وصاحبه عند هذه الشّعوب أن لا ترى في أنظمتها مجالاً لتحقيق طموحاتها، ولهذا كان التّيموس أهم من العوامل الاقتصادية والسياسية.

التّيموس الذي يشير إلى الرغبة بأن يُعترف بنا كمتوافقين من كل الأطراف، والتي تبرز عند الطاغية من أجل أن يعترف بسلطته، أما (الإيزوتيما Isothymia) فهي الرّغبة في أن يُعترف بنا كمساويين للآخرين، وكلا الرغبتين تشكلان مظهرين لرغبة الاعتراف، وتُمكّنان من فهم الانتقال التاريخي نحو الحداثة، "التّيموس" الذي ولد في الشّكل المتواضع كاحترام للذّات، يمكنه أن يبدو، كرغبة في السّيطرة أو السّعي وراء المجموعة، فقد كان "ميكافيلي" يعتقد أن الإنسان يمكن أن يصبح سيد مصيره، إذا استوحى من الشكل الذي يعيشه.

من الأفضل أن يكون الإنسان موهوباً على أن يكون محبوباً، أو يجب ألّا نعي بوعدنا إلّا إذا كان ذلك مهماً (فالميغولتيما) من حيث هي اعتراف بتفوق الآخر "فهي حين تتخذ شكل الرّغبة في المجد، تكون المحرك النّفسي الأساسي للطموح، إن رغبة المجد خاصية شمولية لبني الإنسان، فجوهر الإنسان الحقيقي ليست حاجاته، ولا عقله، وإنّما التّيموس الخاص به، فالإنسان فوق كل شيء هو مخلوق يقوم بالتقييم، إذ هو وفقاً "لنيتشه" ذلك الحيوان صاحب الوجنتين الحمراوين الذي وجد سبب عيشه، في لفظ كلمتي الخير والشّر عبر التّقييم السّلبي والإيجابي للأمور وانفعالات الوجه المصاحبة...

في العصر الحديث تبرز الرّغبة في الاعتراف جيداً في الموضع النّفسي لشعورين شديدي القوة في تكوين الإنسان، هما الدّين والقومية، أي أن تجذر هذين الشعورين في (التّيموس) هو الذي يعطيهما هذا القدر من القوة، فالانفعالات (التّيموسية) كالتّعصب الدّيني، والشعور القومي هي التي جعلت التاريخ يتقدم وسط الحروب، ونتيجة لذلك كانت الصراعات خلال عدة قرون، الأصول (التّيموسية) للدّين والقومية، تفسر السّبب الذي جعل الصّراعات حول القيم، يمكنها أن تغدو قاتلة أكثر من كل الصّراعات حول المكاسب المادية، أو الثروة، ومن هنا خطورة المخاوف التي تدور في النّفوس عند مجموع النّسيج السّوري مثلاً نتيجة الأحداث الدامية من جراء العنف العقائدي بكل تطبيقاته... وبذلك الحل والمخرج لا بدّ أن

يكون عبر مبادئ الدّيمقراطية التي تمثل نصراً غير مشروط للإنسان السوري بعد هذه الحرب العبثية بوجوده مؤخراً، كما أن مبدأ الديمقراطية هي حل شعوب المنطقة جميعهم لتكريس الانتماء وإغناء وجود الذات بحق الاعتراف بكل الممارسات الإنسانية التي ينشدها الإنسان المعاصر أينما وجد.

إن الإنسان الدّيمقراطي هو إنسان مركب من الرّغبة والعقل وماهر في توفير حيل جديدة لإشباع جملة من الرغبات بفضل حسابات الأنوية /الأنا الذاتية/ بعيدة المدى، لكنه يفتقر كلياً إلى كل رغبة بالاعتزاز الأنوي، راضياً بسعادته الدنيئة كونه غير قادر على النهوض فوق رغباته، وعلى اعتبار كلام "نيتشه" مؤثراً في تحفيز ذهنيتي، أجد نفسي دائماً أعود إليه، "نيتشه" الذي يعتقد أن الحرية الحقيقية أو الإبداعية لا يمكن أن تولد إلّا من رغبة العظمة للأنا /العظمة الأنوية ميغالوتيما) أي من رغبة الاعتراف بالتفوق على الآخرين، إنّ الرغبة بأن يعترف المرء كشخص متفوق ضرورية، إذا ما شاء أن يتفوق على ذاته، فتلك الرغبة هي الشرط المسبق لخلق شيء مادي له قيمته في كل الميادين...

لا يمكن للدّيمقراطية أن تدخل بسرعة في حيز التّطبيق عند الدّول الليبرالية، ففي بعض جوانبها ينبغي أن تنبثق من القرار السّياسي المصرح به لإيصال تأسيسها. بمعنى أدق يجب أن تنبع من قرار سياسي واعٍ ومقصود بتأسيس الديمقراطية وفقاً "لفوكوياما" في مؤلفه الشّهير "نهاية التاريخ والإنسان الأخير"، نهاية التّاريخ التي يشير إليها فوكوياما تتضمن بالضّرورة نهاية الأيديولوجيا، فمن أبرز الأفكار التي يتأسس عليها خطاب العولمة الشّعار الرّائج الذي تترجمه مقولة "نهاية الأيديولوجيات" التي سادت بعد سقوط الفاشية بانتهاء الحرب العالمية الثّانية، والماركسية التي ضعفت بانتهاء الحرب الباردة.

والمعروف أنّ "فوكوياما" كان من أوائل الذين بشروا بنهاية الإيديولوجيات في كتابه الذائع الصيت هذا، ليمكّن للدّيمقراطية الليبرالية أن تشكل خاتمة التّطور الإيديولوجي للإنسانية، والشّكل النّهائي لأي حكم إنساني، بمعنى آخر الدّيمقراطية

الليبرالية تشكل نهاية التّاريخ وفق هذا المنظور...

وأيضـاً وفقاً لتطـور مفهوم العولمـة كحدث كوني لـه بعده الوجـودي، لتشكل ظاهرة عالمية جديدة خلقت واقعاً تغير معه العالم، عما كان عليه بإمكاناته وآفاقه المحتملـة التـي كانـت سـائدة فـي حيـاة الشّـعوب، ولكـن ضـرورات العصـر تقتضـي الانفتـاح الفـردي والمجتمعـي... فهـل يكـون لنـا ترتيـب مُرضـي فـي سـلم الوجـود الحضاري المعاصر؟ حيث لا يمكن لنا أن نقفل بابنا؛ حيث الباب بات مخلوعاً.

لـذا أجـد أنـه لـم يبـقَ لـدينا إلّا تحصـين ذواتنـا بحمايتهـا مـن الآخـر المختلـف، وإعطائـه الأمـان منهـا، حينهـا: ننـام فـي العـراء ونبـدع ونـنتج، نختبـر حينهـا طعـم السّـلام الدّاخلي، وعظمة الدّيمقراطية كخلاصة لأرقى أشكال الحكم التي عرفها الإنسان سابقاً.

ظاهرة المعايشة التجاوزية

هـي ظـاهرة معروفـة عنـد الأطفـال، السّـمات العامـة لهـذه الظـاهرة، تشـابه سـمات نفسية مماثلة لدى ما هو قائم في البلدان المتخلفة عبر مسيرتها نحو التّطور الإنساني فـي تراكماتـه المعرفيـة المختلفـة العلميـة والأدبيـة، ومـا إليهـا مـن تطـور فـي عمـل المجموعات والمؤسسات، وهذه السمات لظاهرة المعايشة التّجاوزية تتلخص في كونها:

1- تقوم على عدم التّمييز الواضح، بين أين ينتهي مجالي، أي حدود الأنـا الخـاص بي، وبين الأنـا الآخـر الشّبيه لـي فـي كـل الحقـوق والواجبـات... حيث يرى مـن لديـه هذه الخاصـية نفسـه فـي شبيهه كأنّـه يـراه فـي مـرآة، ويـرى نفسـه مـن هـذا الجانب في المرآة.

2- عنـد الأطفـال هـذه الظّـاهرة، تتجلـى بظـاهرة العـدوى، فعنـدما يبكـي طفـل نجد أن الأطفال المحيطين بـه، يبكون بدون أن يكون هنـاك سببٌ لبكائهم، إلّا بكـاء هذا الطفل، هذه الحالة نجدها عند الأطفال قبل عمر السّنة، وبـالأخص قبـل الشّـهر الثّامن أي قبل عمر نمو الأنا، وراقبوها إن أحببتم، قبل أن يعرف الطّفل وجهه في المرآة عن وجـه أمـه ليتطـور بعدها الاحساس بـالأنـا إلـى حدّ أن الطّفل عنـدما يبدأ

بإدراك أناه يتمركز حولها، ولا يستطيع إدراك شيء مختلف عنها، بل الإسقاط لكل المؤثرات المحيطة اجتماعياً به تكون عليها.

3- وفي الدّراسات النفسية التّحليلية هناك مثال مشهور يوضح ذلك ومثال ذلك "هنري فالون" عالم نفس النّمو، حول طفلة كانت تنظر بحقد إلى قرينتها، وهي تأكل قطعة حلوى ثم أدّى بها هذا الشعور الحاقد إلى أن وجهت لها لكمة موجعة، فلما سئلت الطّفلة لماذا ضربتها؟ أجابت الطفلة الغاضبة: لأنّها ضربتني.

هل نقول إن الطّفلة تكذب؟

حقيقة الأطفال لا يكذبون كما هو شائع، ولكن الأطفال تختلط عليهم المفاهيم بحكم عثرات النّمو، وخصائصها المعرفية والوجدانية، فلنعد إلى الطفلة التي ضربت الطفلة التي تأكل أمامها، من حيث هي رأت فيها قرينتها كصورة شبيهة لها، تساوت مع علاقتها مع صورتها نفسها، فبدت لها الضّربة الصّادرة عنها، كأنها ضربة موجهة إليها.

بمعنى آخر أسقطت رغبتها، بأن تضرب الطفلة، على ذاتها كحل دفاعي عن ممتلكاتها، في سيكولوجية الجشتالت، يبدو الأمر أكثر وضوحاً عند هذه المدرسة النفسية العلاجية، التي كان من أهم إبداعاتها ما تم دراسته حول الإدراك الحسي، وامتداد أحكام هذا الإدراك إلى علوم الحياة، حيث تعدّت ملاحظاتهم عن صورة الشّبيه أو الصّورة النّوعية على بعض الحيوانات كالحمام، أو الجراد في التّأثير العضوي من نمو الكائن الحي نفسه.

الباحث النّفسي الشّهير "شيلدر" قام بدراسة حول الصّورة الباطنية للجسم عند الفرد ومدى تأثير الصّورة المرآوية، أو الصّورة الخارجية الآتية من المحيط في توجيه سلوكه الخاص...

وبالعودة للأصل دائماً، وأقصد هنا المنهج النّفسي التّحليلي، الذي هو الأصل في تكويني المعرفي، بدءًا من "فرويد" الذي عرّف الأنا باعتبارها الوظيفة الخاصة بإدراك الواقع، والتعامل معه.

غير أن "فرويد" ما لبث أن تبيّن له أن هذا الأنا، ليس موضوعاً فحسب بل هو موضوع يجتذب قدراً من العشق، وهو ما أطلق على تسميته بالنّرجسية، نسبة إلى أسطورة "ترسيس" المشهورة في التاريخ اليوناني، والتي عبر عن هذه الحقيقة الفلسفية، بكل عمق تفاصيلها، الفيلسوف اليوناني الغني عن الشّهرة "أفلاطون" في محاوراته العديدة، لاسيما محاوراته "فيدورس" حيث تعلم أن العاشق يرى نفسه في معشوقه، كأنه يراه في مرآة من حيث أن النّزوع إلى التّماهي أو التّوحد بالموضوع، هو أمر معروف منذ القدم، وتشهد عليها بصورة أوضح كل التّغيرات اللغوية في مختلف المجتمعات عند المهتمين والباحثين، وإشارة إلى البحوث حول اللغة، ولاسيما بحوث اللغة وفق المدرسة البنيوية، فقد أضاف "فرويد" من خلال قراءاته للتاريخ ما رآه من تماهي الأنا لا بصورة الشبيه فحسب، بل بصورة الشّبيه من حيث يبدو له شبيهه أو قرينه، متصفاً بصفات من الكمال تنقصه هو.

وبذلك يمكننا القول إن الأنا في جوهره هو الأنا المثالي، أي صورتنا عن الأنا الفردية الخاصة بنا دائماً، يعتريها عدم الموضوعية، فنصف أنفسنا أو ننظر لأنفسنا بنظرتنا لمن نعجب بهم، أي المثال الأعلى الذي يأسرنا، هذا هو المعنى المقصود بالأنا المثالي..

في تطور النّظرة النفسية التّحليلية، لموضوع الأنا وفهم أبعاده، يأتي ما توصل إليه "جاك لاكان" كأنه فتح كبير على فهم الإنسان بمعانٍ واقعية، واضحة الحدود من حيث إن "جاك لاكان" المحلل النّفسي المجدد لنهج فرويد كون "لاكان" نظر إلى مرضاه نظرته إلى موضوع يدرسه من خلال تفاصيل عدة للسّلوك، والمعتقدات عدَّ أن ذات المريض ذات تتميز بطريقتها في التعامل مع العالم الخارجي بسبب الاضطراب الحاصل الخارجي، أي مع الناس الآخرين لها، وبذلك استند "لاكان" إلى تحليلات "هيجل" حول ما يسمى النّفس المزهوة أي النّفس التي تنعي على العالم فساده، وترفض أن تدرك مدى إسهامها في هذا الفساد.

إن تماهي الطّفلة في المثال المذكور سابقاً بغريمتها التي كانت تقوم عندها،

وإن أنكرت مقام الأنا المثالي الخاص بها، عبر علاقة خيالية ملؤها التّوتر، والانقباض مما أدى بها إلى فعل طعن الغريمة فعلاً كما حصل بالمثال، الذي أوردته حول طفلة "فالون" حيث إن ما قامت به الطّفلة الضاربة، هو فعل لا يخلو من البحث عن الرّغبة في العقاب، وبذلك كان ابداع "جاك لاكان" الثّري حول "مرحلة المرآة" كمرحلة مهمة في النّمو النّفسي للإنسان من حيث إن:

الشعور بالذات يرتبط ارتباطاً أساسياً بظهور صورة الجسم بعيداً عن الجسم نفسه، كيف يكون ذلك بمعنى ثنائية النّفس والجسد في الحضور الإنساني.

ففي النّمو الأولي الطّفلي يبدو أن هذه الثنائية متطابقة، بمعنى تقدير الذات لا يأتي إلّا عبر العنصر الحسي المادي، كون النّمو المعرفي عند الإنسان يتدرج من المعرفة الحسية إلى المعرفة شبه الحسية إلى المعرفة المجردة، وهذا يتبع تطور المحاكمات المنطقية عبر الاستعدادات العقلية، وما تراكمه الخبرة الحياتية لنا من خلال استغلال وتوظيف كل إدراكاتنا الحسية...

لتكون وفقاً لهذا المنظور التّكوينات النّرجسية البارانوية للدكتاتورين تنهل سعادتها على حساب سعادة الآخر كون هذه الشّخصيات المريضة لا تجد مكاناً لمشاركة الآخرين سعادتها، لأن الأنا عندهم مغرقة في التّضخم والانغلاق على محورها، فكلما ارتد حبّ المرء لنفسه انعكس مزيداً من البغضاء للآخرين، وهذا ما نجده جلياً لدى الساسة عبر العصور والأزمنة التاريخية، إدراكاً منهم أن البغضاء والحقد يمكن توظيفهما لأهداف معينة راحوا ينشئون العداوات تدعيماً لوفاقهما الداخلي مع نزعاتهم النرجسية.

مما سبق يمكن القول: إن إدراك الأنا أو الشيء، في سياقات متعددة وعلاقات متنوعة يعطي لكل سياق ولكل علاقة أداءً مغايراً ومفهوماً مغايراً، بحيث يجعل الشيء أشياء قد تناقض بعضها، وذلك مكمن الخطورة، ومكمن أهمية الوعي الذي نسعى لتحقيقه، ولنا أن نضيف (الوعي) مع تلك التّعددية السّياقية إلى مالا نهاية له، بحيث يتعدد مدلوله عبر سياقات معينة بتعدد الإضافات أو الصّفات.

فنقول: وعي ديني، وسياسي واجتماعي وفكري، ...إلخ وهنا نستعيد كلمة (وعي) بعد وعي مدلولها، لا من خلال مادتها اللغوية فحسب، وإنما من خلال سياقات تصورية أو افتراضية، أو من خلال استقرار المصطلح في ذاكرتنا، وعلى هذا الأساس (فالوعي) ليس مجرد إدراك الدّلالة اللغوية المباشرة للشّيء مفصولاً من سياقه، ومن علاقاته ومن نتائج هذه العلاقات، ومن التّحولات الدّلالية عبر الزمن، وهنا تقترب مقاصدنا (بالوعي) من التّحرر والتّميز، بحيث يكون مصطلحاً لا يفارق الدلالة الوضعية، وإنّما ينطلق منها متنامياً مع الأنماط، والسّياقات والعلاقات التي تشكل النّسيج الاجتماعي، وبالتالي محاولة الوقوف عند الوعي في ضوء سياقاته المتعددة، أي في سلسلة الدلالات، حيث أصبحت هذه التّداعيات والتّداخلات إشكالية ذهنية أنتجتها إشكاليات العصر المعقدة من خلال تسارع إيقاع الأحداث في محيط وعجز الإدراك الواعي عن الإحاطة بها، حيث إنّنا نلاحظ أن الذين ينظرون إلى الأمور بصورة مستقلة ومجزأة أو مجردة عن ظروفها وأنماط واقعها، ولا يضعون حساباً للعلاقات، سوف يكون حليفهم الاخفاق، والإحباط، فالوعي المراد في بحثنا هذا وفيما يشاكله يعني: إدراك الأنا عبر الآخر، أو علاقة المفاهيم بغيرها وما تنشئه تلك العلاقات من متغيرات، التي هي في الأصل ليست على وتيرة واحدة، لتبيان الفرق بين خصائص الشيء مجرداً، أمّا رؤية المسائل الاجتماعية على المستوى المعنوي، فهذا الأمر يقتضي منّا رؤية أعمق مما نتصور ظاهرياً للحدث، وبذلك يكون العمل المنتج ما هو إلّا وليد تفاعل الأشياء مع متلازماتها، وهنا استعير المثال الشّهير حول العربة والقيادة: من حيث إن شروط قيادة السّيارة علم، وممارساتها مهارة وفن، والطّريق مضمار لممارسة القيادة، وعلاقة المركبة هنا متصلة مع عدة عناصر، وليس فقط رؤية المركبة والطّريق، إنّما الأمر يقتضي منا شيء آخر من صنيعة الوعي بالعلاقة بين الطّريق والمركبة وسمات كل منهما، ومميزاته وظروفه الطّارئة أو ملازمة الوعي الذي يكاد يكون غائباً عن الكثيرين، ممن يتصورون أنهم أوعى من غيرهم، وهنا تكمن الخطورة في غياب مثل هذا النوع من الوعي، حيث يغدو الأمر

مؤسفاً عندما يكون هذا الارتباك وسوء التّقدير، والرؤية المحدودة واقعاً بين أوساط النخبة، متمكناً من المثقفين، وأصحاب الخطاب المتعدد الانتماءات، هذا الوعي الذي أجد من المهم السّعي الحثيث لتأكيده، وتنميته عبر مزيج من قدرات وملكات متعددة، أهمها القدرات الاستيعابية للأحداث بعيداً عن التصنيفات، وبغياب للقدرات التّحليلية، والاكتفاء بالقدرات الاستنتاجية الظاهرة للحكم على الأحداث التي تُنغص حياتنا، ما أجده مهماً أيضاً، أن تكون إرادتنا الاعتماد على قدرات تفاعلية لا انفعالية وقدرات ابتكارية لا استلابية، وقدرات عملية منتجة، وقدرات معرفية لا قدرات نقلية يرددها الآخرون لنتبناها بكليتها بدون استبصار، وأعمال المحاكمات لتطبيقاتها المختلفة.

من هنا تأتي ممارسة الفعل على ضوء معرفة متعددة المستويات، وليس المعرفة من باب العلم بالشّيء فقط... حيث إن أعمال القدرة على انتقاء البديل الأمثل في مواجهة الطوارئ، من كونه التّصرف الأكثر دقةً، وانضباطاً في المواقف المفاجئة والحرجة والمتداخلة، هنا يكمن الفعل الحضاري التّجاوزي القصدي التّأسيسي الذي يعمق صلتنا بالواقع ويبرز أصالة انتمائنا، وكل ذلك لن يكون إلّا بمقدار القدرة على التّحكم بالذات، وامتلاك المشاعر وترشيد العواطف في كل المواقف الذاتية، والغيرية، وضبط النّفس، إنّه المبادرة واتخاذ القرار في أحلك الظروف، إنه حوار الحضارات دونما تشنج أو صدام، ودونما خنوع أو استسلام، تمثلاً بقول الأجداد، ومنهم أذكر معاوية بن أبي سفيان الذي يقول: «ما دخلت في شيء إلّا أحسنت الخروج منه»، إلى قول عمرو بن العاص: «ما دخلت في شيء إلّا وقد عرفت من قبل كيف أخرج منه»، كما القادة العسكريون المهرة، الذين يضعون خططاً في حال الاضطرار للهزيمة، كما هو الحال في الخطط لنيل الانتصار، فهم يضعون في حساباتهم عدة احتمالات قبل خوض معاركهم، بحيث لا تفاجئهم الأحداث، وصدقَ من قال: «من أراد السّلام فليستعد للحرب» فحربنا التي أجدها طويلة هنا، هي ليست حرب الآلات العسكرية، فالحرب حصلت وللأسف، وقد شملت نتائجها من مظاهر الدّمار الكثير.

وكم من مشاريع مصيرية باءت بالفشل لمجرد أنها جاءت في غير وقتها، أو نفذت في غير مكانها الطبيعي، سواء أكانت بيئة ذهنية أم اجتماعية أم جغرافية، أو ما شئتم من المؤثرات المباشرة أو غير المباشرة، وكم قيل: جاء فلان سابقاً لوقته، لقد مُنيت كثير من دول العالم وأحزابه بنكسات موجعة بسبب طموحات فقدت التّوقيت والتقدير: تقدير الذات، وتقدير الآخر... وأدواتنا في مسعانا هذا لن يكون إلّا عبر الوعي والإدراك الواعي. يقول عباس محمود العقاد في مجموعته الفلسفية: (الوعي والعقل لا يتناقضان، وإن كان الوعي أعم من العقل في إدراكه، لأنّه مستمد من كيان الإنسان كله، ومن ظاهره وباطنه وما يعيه هو وما لا يعيه، ولكنه يقوم به قياماً مجملاً محتاجاً إلى التّفصيل والتّفسير)...

فكأن العقل يعطي المواصفات، والوعي يحدد الاختيارات، ومن ثم لا قيام لأحدهما بغياب الآخر، وجل الأمر يتحقق بتكامل عمل العقل والنّفس، كأن يكون الإنسان حافظاً للقرآن الكريم مقيماً لحروفه، وما يقدر عليه من حدوده، ولكنه لا يكون واعياً لمدلوله، مُدركاً لأهدافه، مستفيداً من غناه اللغوي والجمالي والدّلالي في ممارساته الكتابية والكلامية.

هكذا أقدم رؤيتي لوعي الذات والآخر في طريق الفاعلية والتّفاعلية وليس عبر الإلغاء، أو الاندماج أو التّجاوز، وهنا بيت القصيد حول المشكلة في تخطي الحدود.

فالحدّ في النّهاية حرفٌ نقف عنده، بعد أن نفك رموزه ومدلولاته عبر سياقاته المختلفة مفرداً، أو مركباً مع أحرف أخرى ونهايات...